الغزو الفكري

أثره في القرآن، ومكائد التصدي له

د/ عمر يوسف حمزة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم التفسير والحديث - جامعة قطر -

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى والصلاة والسلام على رسول الهدى محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن قضية الغزو الثقافي الغربي للفكر الإسلامي من القضايا الكبرى التي يواجهها العالم الإسلامي، ومن الغايات التي يرمي إليها الغزو الثقافي هي صبغ الثقافة الإسلامية بصبغة غربية، وإخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص، واحتوائها على النحو الذي يجعلها تفقد ذاتيتها ومكانتها وتنصهر فيما أطلق عليه اسم "الثقافة العالمية" أو الفكر الأممي.

وقد استطاع هذا المخطط أن يحتوي عددا كبيرا من أبناء المسلمين والعرب ممن علمهم في معاهد الإرساليات وجامعاته المتخصصة في هذا الشأن، أو ممن استقدمهم إلى الغرب حين تتلمذوا على المستشرقين، وأساتذة مدرسة العلوم الإجتماعية، والتحليل النفسي والتفسير المادي للتاريخ.

والغزو الفكري حركة كاملة، لها نظمها وأهدافها ودعائمها، ولها قادتها الذين يقومون بالإشراف عليها، تستهدف احتواء الشخصية الإسلامية الفكرية، ومحو مقوماتها الذاتية وتدمير فكرها، وتسميم ينابيع الثقافة فيها. [1]

دوافع الغزو الفكري:

ربما يتساءل بعض الناس عن الدوافع التي جعلت العالم الإستعماري يهتم بالإسلام والمسلمين وتعتريه الدهشة لما يرى من جهد كبير يبذل في حلبة الصراع الفكري بين الإسلام وغيره من الديانات المحرفة، وما الذي يدعو الباحث

الغربي إلى بذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة الإسلام، ومعرفة لغة القرآن، والتعمق في فهم آداب هذه اللغة وعقائد أهلها وتاريخهم؟ وكان يمكن لهذه الجهود أن توجه لدراسة مجالات أوربية أخرى، يمكن أن تظهر فيها مواهبه وإمكاناته الفكرية من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون أكثر فائدة له من الناحية العلمية؟ وربما نجد من يقول إن الدافع العلمي كان وراء كل الجهود التي بذلها الباحثون الغربيون في دراسة الإسلام واللغة العربية، ولكن ليس هذا هو الدافع الحقيقي لحركة الصراع الفكري بين المسلمين وغيرهم. (2)

وهذه الدوافع يمكن بلورتها في النقاط التالية:

1- **تشويه صورة الإسلام:** وقد شمل هذا التشويه جميع جوانب الإسلام، في عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، ومن أوضح الأمثلة على ذلك محاولة تشويه القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة، وشخص المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وتاريخ الإسلام ونظام الحياة الإسلامية، والتراث الإسلامي. (3)

من هنا نجد محاولات التقول على الإسلام، والإدعاء عليه ومحاولة تشويه صورته عند أصحابه، وعند غير أصحابه. (4)

2- **التشكيك في تاريخ الأمة الإسلامية:** لكي تقطع صلة هذه الأمة بتاريخها، والتشكيك في مفاخره، والتركيز على مباذله، بحيث تنشؤ أجيال لا تعرف منه إلا تاريخا مشوها حالك الظلام. (5)

3- **التشكيك في حاضر الأمة ومستقبلها:** فالتشكيك لم يقتصر على تاريخ الأمة بل شمل حاضرها ومستقبلها، والهدف من ذلك واضح، كما أشرنا إلى طرف منه في الدافع الثاني.

4- **تذويب شخصية الأمة الإسلامية:** بحيث تفقد هويتها، وتذوب فيما يغاير طبيعتها، وينافر عقيدتها، وقد استخدم الغزو لتحقيق هذا الدافع عشرات الوسائل: مباشرة وغير مباشرة، وواضحة وضمنية، ومادية ومعنوية، وأجنبية ومحلية، واقتصادية واجتماعية، وتعليمية وثقافية، وعسكرية ومدنية، على أرض المسلمين ولن يسافر إلى خارج ديارنا...إلخ. (6)

5- **استبدال ثقافة الإسلام بثقافة جديدة:** توجه العقول، وتحكم السياسة، وتصنع القرارات، وتحرك الشخصيات، وتشوه الضمائر، فحينما عجزت أجهزة الغزو والتغريب والتبشير عن تغيير ديانة المسلمين، عمدت إلى البديل الأمثل في وجهة نظرها، وهو أن يظل المسلمون يحملون أسماء إسلامية، ويؤدون العبادات كاملة أو منقوصة أما المعاملات ونظم الحياة وتنظيمات المجتمع فلتتحول إلى نظم غربية أو شرقية تحمل قسماتها وتتبنى فلسفتها، وإذا تحقق ذلك فقد قضي الأمر، وتحقق الهدف.

وهناك محاولات تمت في بلاد المسلمين بهذه الطريقة، بعضها دبر بذكاء وعمق، وبعضها بغباء وسطحية، ومن أشهر هذه المحاولات فرض العلمانية كنظام حياة وفكر وتعامل [7] في جميع جوانب حياة المسلمين الإقتصادية والتعليمية، والثقافية والقانونية والسياسية والتربوية، والتعامل مع الآخرين... إلخ.

تعتبر هذه أهم الدوافع للغزو الفكري فيما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين المعاصرين، ولعل هناك دوافع أخرى صرفت النظر عنها لضيق مساحة البحث ولعل غيري يفردها بدراسة خاصة تكون أشمل وأعمق.

أثر الغزو الفكري في القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو المصدر الوحيد المعصوم من بين جميع الكتب السماوية، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، «**ذلك الكتاب لا ريب فيه**» [8] ما شأنه نقص ولا شابته زيادة منذ نزل إلى يوم الناس هذا، فهو يحفظ الله مصون من أهواء الناس، ووساوس الجن والإنس.

ومن خلال حفظ الله تعالى للقرآن الكريم حفظ الله سبحانه ذكر من سبقنا كذلك، فلولا القرآن العظيم لضاع الصحيح السليم من تراث الأنبياء: «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**». [9]

وبقاء هذا القرآن محفوظا هو العزاء الوحيد عن ضياع مواريث النبوات

الأولى لأنه استوعب زبدتها، وقدم في هداياته خلاصة كافية لها «**إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى**». [10]

فإذا أطلعت الأجيال المستأخرة على هذا القرآن فكأنها وعت ما قاله المرسلون السابقون وانتظمت مع الركب السماوي في الإيمان بالله والعمل له. [11]

القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول الذي تقوم على أساسه عقائد الدين الإسلامي وشريعته، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه، فإذا ثبت وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن الإيمان به يصبح أمرا لا مفر منه.

ومن أجل ذلك اتجهت جهود المناهضين للإسلام قديما وحديثا إلى محاولة زعزعة الإعتقاد:

أولا - في مصدر القرآن الكريم:

ومحاولة تشويه القرآن قديمة ترجع إلى عصر النبي ﷺ حمل لواءها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى، ووثنيين أجيالا بعد أجيال إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة تصديقا لقول الباري جل شأنه: «**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى**» [12] وقوله تعالى: «**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**». [13]

وقد بذل الوثنيون جهدهم في مقاومة فكرة أن القرآن وحي من عند الله، فزعموا أنه: «إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون» [14] وأنه: «أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» [15] وأن محمداً يعلمه بشر: «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» [16] أو أن القرآن قول ساحر، أو كاهن، أو شاعر، «**فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر**» [17] وقد نفى الله كل هذه المزاعم الباطلة عن القرآن الكريم فقال جل شأنه: «**إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين**» [18] ونفى الله تعالى أن يكون

محمداً قد تقول على الله هذا القرآن ولو فعل هذا لعاقبه الله على ذلك ولن يستطيع أحد أن يدفع عنه عذاب الله حين ينزل: «**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثمّ لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين**».[19] وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إبطال القول بأنه وحي السماء إلى محمد ﷺ، لهداية البشر.

وقد سار على طريقي مشركي مكة المبشرون والمستشرقون المتحاملون على الإسلام في موقفهم من القرآن، وبذلوا محاولات مستميته لبيان أن القرآن ليس وحياً من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد ﷺ ورددوا أحياناً الإعتراضات التي قال بها الوثنيون قديماً رغم دحض القرآن لها.

وظهرت محاولة تشويه القرآن الكريم في بعض ترجمات معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية كما جاء في مقدمة المستشرق "جورج سيل" والتي صدرت عام 1736م حيث يقول الآتي: «أما أن محمداً كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدل وإن كان من المرجح - مع ذلك - أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الإعتراض عليه بذلك».[20]

وقد وصف "جورج سيل" بأنه نصف مسلم وذلك لاهتمامه البالغ بالإسلام، وقد صادفت المقدمة التمهيدية للترجمة التي جزم فيها بتأليف محمد للقرآن نجاحاً عظيماً في أوربا، الأمر الذي أدّى بمستشرق آخر هو "كاسميرسكي" أن يجعل من مقدمة "سيل" مقدمة لترجمته الفرنسية لمعاني القرآن التي صدرت عام 1841م، وقد أثبتت هذه المقدمة وجودها زمناً طويلاً جداً كمصدر علمي موثوق به لدى المستشرقين من حيث اشتمالها على عرض شامل للدين الإسلامي.[21]

وقضية تأليف محمد للقرآن أصبحت أمراً لا يقبل الجدل، كما يقول "سيل" غير أن من المستشرقين من يذكر ذلك صراحة كما فعل "سيل" من قبل،

وكما فعل "رينان" من بعده إذ اعتبر الرسالة المحمدية امتدادا طبيعيا للحركة الدينية التي كانت سائدة في عصر محمد ﷺ، دون أن تشتمل هذه الرسالة على جديد [22] ومنهم من يذكر ذلك بأسلوب أقل حدة وبطريق غير مباشر، وقد نحى بعض المستشرقين المعاصرين هذا المنحى الأمر الذي يجعل رأيهم يبدو وكأنه استنتاج علمي.

وهذه الفرية الإستشراقية لا تثبت أمام النقد العلمي وقد رد عليها القرآن الكريم أبلغ رد كما أشرت إلى ذلك في الحديث عن مزاعم الوثنيين، وقد ذهب المستشرقون مذاهب شتى لإثبات المصادر التي اعتمد عليها محمد في كتابته للقرآن.

ويرى كثير من الباحثين المستشرقين أن الرسول ﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، كما اعتمد على مصادر عربية فيما يتصل بقصص العقاب كقصص عاد وثمود، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية.

وقالوا إن محمداً كان يصحب عمه أبا طالب في كثير من رحلاته التجارية وأنه استفاد من هذه الرحلات بما كان يسمعه من الأعراب الذين كانوا يسكنون الديار التي يمر عليها كديار ثمود، ومدين وغيرهما، وما كان يسمعه من أحبار اليهود ورهبان النصارى، وذلك مثل بحيرى الراهب الذي لقبه في مدينة (بصرى) بالشام وقالوا: إنه كان نسطورياً من أتباع (آريوس) في التوحيد، وينكر ألوهية المسيح، وعقيدة التثليث، وأن محمداً لابد أن يكون علم منه عقيدته، بل غالي بعضهم فزعم أنه كان معلماً للنبي ومصاحباً له بعد رسالته [23] وزعموا أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى وإن كانوا عبيدا أو خدماً، وكانوا يسكنون أطرافها، ويتحدثون بالكثير من القصص الذي جاءت به كتبهم فسمع منهم النبي ما سمع واستفاد منهم الكثير مما ذكره من قصص الأولين. إلى غير ذلك من الشبهات التي أوردوها وشككوا في مصدر القرآن

وأنكروا أن يكون من عند الله تعالى، وإنما هو مستمد من تلك الينابيع التي ذكرناها سابقاً وأن كل مافي القرآن من عقيدة، وتشريع وآداب، فهي مستمدة من كل تلك المصادر ومن محمد نفسه وعقله الباطن لا من شيء خارج عن نفسه، وهو أن القرآن وحي من الله لرسوله ﷺ. (24)

ويذهب المستشرق "لوت" إلى أن النبي ﷺ مدين بفكرة فواتح السور من مثل: حم، وطسم، وألم، ...إلخ. لتأثير أجنبي، ويرجح أنه تأثير يهودي، ظناً منه أن السور التي بدئت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها النبي ﷺ، لتأثير اليهود، ولو دقق في الأمر لعلم أن سبعاً وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وأن اثنتين فقط من هذه السور مدنية وهما سورتا البقرة وآل عمران. (25)

وقد تناول الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله - جميع الإفتراضات المتعلقة باحتمال وجود مصدر بشري للقرآن، وناقشها مناقشة علمية، وأظهر زيفها وبطلانها، وانتهى إلى القول بأن: «جميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح له (أي للنبي ﷺ) فرصة الإتصال بالحقائق المقدسة. ورغم الجهد الذهني الذي نبذله لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته، فإنه يتعذر علينا اعتبارها تفسيراً كافياً لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون... إلخ». (26)

فإذا ثبت بطلان تلك المزاعم حول القرآن الكريم، فلم يبق إلا أنه وحي الله تعالى لنبيه ﷺ، الذي أرسله رحمة للناس أجمعين.

ثانياً- صحة النص القرآني:

عرضنا في الصفحات الماضية لشبهات المستشرقين وقبلهم الوثنيين للتشكيك في مصدر القرآن الكريم، ومن الحملة التي أثيرت حول القرآن أيضاً التشكيك في صحته وهو ما نعرض له الآن بشيء من الإجمال، ولعلهم أرادوا أن

يتشككوا في صحة النص القرآن ليردوا على القرآن بالسلاح نفسه، فقد قرر القرآن الكريم أن التوراة والإنجيل قد أصابهما التحريف والتبديل والآيات في هذا المعني كثيرة ولا يتسع المقام لسردها وهي تحتاج إلى بحث منفرد.

فقد انطلقوا هذه المرة في حملة التشكيك من موضوع القراءات بالأحرف السبعة، بناء على ما ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأقرؤوا ما تيسر منه». (27)

وقد ورد في بعض الروايات الضعيفة التي أخرجها الطبري وغيره عن أبي هريرة، زيادة في هذا الحديث تقول: «فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة» وعلى مثل هذه الروايات الضعيفة المرفوضة يعتدم المستشرقون في تشكيكهم في صحة النص القرآني (28) وبناء على ذلك زعموا أن القراءة كانت حرة طليقة، الأمر الذي جعل تعرض نص القرآن للتغيير أمراً لا مفر منه. وهم بذلك يوهمون بأن التدوين وقع في جو هذه الحرية، وفي هذا الجو تم تسجيل قراءات مختلفة، وهذه القراءات التي نجمت عن ذلك لم تكن هي الصورة التي ورد بها الوحي أساساً، ونتيجة ذلك كله هي القول بحدوث تغيير في النص القرآني.

وقد أثار بعض أئمة المفسرين عن حسن نية مشكلة خطيرة، ففتحوا بها الباب على مصراعيه لشبهات المستشرقين وضعاف الإيمان من المؤمنين، وتتمثل هذه المشكلة في حصر هذا الفريق من العلماء المراد من الأحرف السبعة في «سبعة أوجه من المعاني المتفقة، بالألفاظ المختلفة، نحو أقبل وهلم وتعال، وعجل وأسرع، وأنظر وأخر وأمهل ونحوه» (29) وظاهر لفظ الطبري في تفسيره ربما أفاد هذا، فهو يستشهد بقوله عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب: «يا عمر، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة» (30) فكان لابد أن يتشبث المستشرقون بهذا ليؤكدوا «أن نظرية القراءة بالمعنى كانت بلا ريب أخطر نظرية في الحياة الإسلامية لأنها أسلمت النص القرآني إلى هوى كل شخص، يثبته على ما يهواه» (31) وفي هذا حمل للنصوص على غير وجهها

الحقيقي، فليست النظرية هنا مما يصح حقاً أن يسمى "القراءة بالمعنى" كما نفهمه مثلاً، وفي رواية الحديث بالمعنى، إذ «القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف أو تثقيل أو غيرهما» [32] فإذا صح أنه عليه الصلاة والسلام وسع على المسلمين في أول الأمر، وراعى التخفيف على العجوز والشيخ الكبير، وأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه، أي على طريقته في اللغة، لما يجده من المشقة في النطق بغير لغته، فليس معنى هذا أنه كان يأذن لهم بإثبات هذه القراءات وكتابتها على أنها حروف نزل عليها القرآن.

وقد أنكر ابن الجزري في "النشر" القراءة بالمعنى فقال: «أما من يقول بأن بعض الصحابة، كابن مسعود، كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه. إنما قال: نظرت القراء فوجدتهم متقاربين فاقرؤوا كما علمتم». [33] والأمر في القراءة بالأوجه السبعة لم يكن متروكاً لأهواء الناس، وإنما كان محكوماً بما يقرأه الرسول ﷺ للناس من أوجه للقراءة كان القصد منها التخفيف على الناس في أول الأمر: «فأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه، أي على طريقته في اللغة، إلى أن ضبط الأمر في آخر العهد وتدربت الألسن، وتمكن الناس من الإقتصار على الطريقة الواحدة فعارض جبريل النبي ﷺ القرآن مرتين في السنة الأخيرة، واستقر على ماهو عليه الآن، وهذا ما عليه أكثر علماء المسلمين». [34]

وما يزال المسلمون منذ عصر النبوة وإلى يومنا يتمسكون بالمحافظة على الوحي القرآني لفظاً ومعنى، ولا يوجد مسلم يستبيح لنفسه أن يقرأ القرآن بأي لفظ شاء ما دام يحافظ على المعنى، وليبحث المستشرقون اليوم في أي مكان في العالم عن مسلم يستبيح لنفسه مثل ذلك وسيعييهم البحث، فلماذا - إذن - هذا التشكيك في صحة النص القرآني وهم يعلمون مدى حرص المسلمين في السابق واللاحق على تقديس نص القرآن لفظاً ومعنى؟

ولكن هذه هي طريقة المستشرقين؛ إنهم يبحثون دائماً ـ كما سبق أن أشرنا ـ عن الآراء المرجوحة والأسانيد الضعيفة ليبنوا عليها نظريات لا أساس لها من التاريخ الصحيح ولا من الواقع، لأن القرآن الكريم إلى يومنا هذا تنقله أجيال المسلمين بالأسانيد المتواترة عن الرسول ﷺ، وهو بدوره تلقاه وحياً من الله تعالى، ولم يحدث أن أصاب هذا القرآن أي تغيير أو تبديل على مدى تاريخه الطويل، وهذه ميزة انفرد بها القرآن الكريم من بين الكتب السماوية كافة، الأمر الذي يحمل في طياته صحة هذا الدين الذي ختم الله به سائر الرسالات السماوية.[35]

ثالثاً - كتابة القرآن ورسمه:

ومما له صلة بالتشكيك في صحة القرآن الكريم أن المبشرين والمستشرقين طعنوا في كتابة القرآن ورسمه المجمع عليه في المصاحف العثمانية، وكل ما استندوا إليه يرجع إما إلى روايات باطلة نسبت إلى السلف الصالح كذباً وزوراً، وقد تنبه العلماء إليها من قديم الزمان، وإما إلى اعتراضات أوردها المؤلفون في تفسير القرآن وعلومه وأجابوا عنها بما يقنع ويشفي.[36] وقد حمل لواء هذا الإفك قس يدعى "فندر" فألف كتاباً سماه "ميزان الحق" وأولى به أن يسمى ميزان الباطل وقس آخر مجهول تستر تحت اسم هاشم العربي في "تذييل مقال في الإسلام" وقس ثالث يدعى "تستدل"[37] فجاء هؤلاء القسس الذين تستروا تحت اسم "المستشرقين" فاطلعوا على هذه الروايات والإعتراضات فطاروا بها فرحاً وهولوا ماشاء لهم هواهم أن يهولوا وظنوا أنهم وصلوا إلى ما يريدون من تشكيك المسلمين في أقدس مقدساتهم وهو القرآن الكريم، وقد قيض الله لهذه الشبه من علماء المسلمين من زيفها وبيّن بطلانها، وأنها سراب لا حقيقة له، وأنهم طعنوا في غير مطعن، وطاروا في غير مطار.[38]

وقد أورد أعداء الله أكثر من عشرة شبه. حول كتابة القرآن ورسمه، وهي شبه لا تستند إلى أي رواية صحيحة، ومن الأمور المعروفة عند المسلمين عامة

أن العمدة في القرآن وحفظه هو التلقي، والسماع من النبي ﷺ، أو ممن سمع منه أو سمع ممن سمع منه، وهكذا حتى وصل إلينا القرآن غضاً كما أنزل ولم يكن يؤخذ القرآن من الصحف، أو المصاحف المكتوبة، وإنما كان القصد من المكتوب معاضدة المحفوظ، والرجوع إليه عند الإختلاف في القراءة، أو الرسم، وأن الذين غزيت إليهم هذه الروايات، ولا سيما ابن عباس، وتلامذته، قد قرؤوا بالقراءات الثابتة المتواترة على خلاف ما نقل عنهم من الطعن فيها مما يدل على بطلان هذه الطعون. إن القرآن الذي نقرؤه اليوم، هو القرآن المعجز الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، بلا زيادة ولا نقص ولا تبديل، وإن طعن الملحدين فيه ساقط لا يرتكز على أساس، وليس يعتبر في صحة نقل القرآن ألا يخالف فيه مخالف، وإنما المعتبر في ذلك مجيئه عن قوم بهم يثبت التواتر وتقوم الحجة.

وصدق الله العظيم «**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**» [39] والقائل في محكم كتابه: «**إن علينا جمعه وقرآنه**» [40]. وأجمعت الأمة على أن المراد بذلك حفظه على المكلفين للعمل به وحراسته من وجوه الغلط والتخليط، وذلك يوجب القطع على صحة نقل مصحف الجماعة وسلامته[41] «**وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**». [42]

رابعاً - اضطراب القرآن في نظر بعض المستشرقين:

يحاول أعداء الإسلام تغيير حقائقه وتشويه وجهه الوضاء، بطرق شتى، ووسائل مختلفة. ومن تلك الوسائل ما يثيرونه حول القرآن الكريم الذي هو مصدر عقيدة المسلمين ولسان وحدتهم، فيزعمون أن في القرآن اضطراباً، وعدم ثبات، واختلافاً لا يوجد مثله في كتاب آخر:

ومن هذه الافتراءات ما ذكره المستشرق "جولدتسيهر" في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» حيث يقول فيه: «فلا يوجد كتاب تشريع اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في نص القرآن». [43]

وللرد على هذه الشبه الضالة نورد الآتي:

إن العكس هو الصحيح، فليس هناك كتاب حفظ من التحريف والتبديل، مثل القرآن الكريم، الذي تكفل الله عز وجل بحفظه كما أشرنا إلى ذلك في أكثر من موضع من البحث، قال جل شأنه: « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ». (44)

إن النص القرآني محال أن يعتريه اضطراب، لأن الإضطراب إنما يكون حيث يوجد تناقض في المعنى، وتعارض في المراد، وتضارب في الهدف. وهذا كله منفي عن القرآن الكريم، فاختلاف القراءات لا يؤدي إلى هذا التضارب والتضاد (45) لأن اختلاف القراءات يرجع إلى قسمين:

القسم الأول: أن تختلف القراءتان في اللفظ وتتفقان في المعنى، كقراءة: «**اهدنا الصراط المستقيم**» (46) بسورة الفاتحة، قرئت بالصاد والسين، وكقراءة (مرفقا) من قوله تعالى: «**ويهيء لكم من أمركم مرفقاً**». (47) بكسر الميم وفتح الفاء، أو بفتح الميم وكسر الفاء. (48)

والحكمة في هذا النوع من القراءات: هي تيسير التلاوة على ذوي اللغات المختلفة ومن هذا النوع أيضاً ما لا تختلف فيه اللغات، وإنما هما وجهان، أو وجوه تجري في فصيح الكلام، كما في قوله تعالى: «**نزل به الروح الأمين**». (49)

قرئ بتخفيف الزاي من (نزل) ورفع الحاء من (الروح) والنون من (الأمين). وقرئ بتشديد الزاي من (نزل) ونصب الحاء من (الروح) والنون من (الأمين). (50)

وهذا النوع من القراءات وارد على طريقة ما ألفه العرب من صرف عنايتها إلى المعاني، ونظرها إلى الألفاظ على أنها وسائل، فلا ترى بأساً في إبراز اللفظ على وجهين، أو وجوه ما دام المعنى الذي يقصد بالخطاب مستقيماً، وفي هذا توسعة على القارئ بعدم قصره في نطاق حرف واحد، ولا سيما إذا كان محجوراً عليه أن يغير الكلمة من القرآن، ويحيد بها عن وجهها المسموع. (51)

القسم الثاني: أن تختلف القراءتان في اللفظ والمعنى معاً، مع صحة المعنيين كليهما، فلا يكونان متناقضين ولا متعارضين، بل يمكن اجتماعهما في شيء واحد، كما في قوله تعالى: «**وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً**». (52)

قرئ (ننشزها) بالزاي على معنى نضم بعضها إلى بعض حتى تلتئم وتجتمع؛ كما قرئ بالراء على معنى نحييها بعد الموت للحساب؛ (53) والمعنيان مختلفان، ولكنهما لا يتناقضان ولا يتنافيان، لأن الله تعالى إذ أراد بعث الخلائق ضم عظامهم بعضها إلى بعض حتى تجتمع، ثم يحييها للجزاء (54) إلى غير ذلك من الأمثلة.

والحكمة في هذا النوع من الإختلاف أن تكون الآية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعاً، وهذا نوع من الإعجاز القرآني. أما اختلاف القراءتين في اللفظ والمعنى مع تضاد المعنيين، فلا وجود له في القرآن الكريم. قال تعالى: «**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثراً**». (55)

فاختلاف القراءات إنما هو اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تعارض وتضارب، فإنّ هذا لا يتصور أن يكون في كلام العقلاء من البشر، فضلاً عن أن يكون في كلام رب العالمين، وإذا كان الأمر كذلك استحال على النص القرآني أن يعتوره قلق، أو ينزل بساحته اضطراب. (56)

كما زعم "جولد تسيهر" أن اختلاف القراءات راجع إلى طبيعة الخط العربي الذي كتبت به المصاحف العثمانية، وهي أنها كانت خالية من الإعجام والنقط وخالية من الشكل الذي يدل على إعرابها؛ فيقول في كتابه مذاهب التفسير ما نصه: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الإختلافات إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لإختلاف النقط الموضوعية فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة

العربية الأصيلة ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الاعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذاً فاختلاف الحركات الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه». (57)

وبأدنى تأمل في هذا الكلام الباطل نجد أنه يتنافى مع قضايا العقل، وقوانين المنطق السليم، والواقع التاريخي، لأن القرآن الكريم بجميع قراءاته ورواياته كان محفوظا في صدور الصحابة رضي الله عنهم، قبل أن تكتب المصاحف في عهد الخليفة عثمان، بل قبل أن يجمع القرآن في المصحف في عهد الصديق أبي بكر، كما يدل على أن قراءاته ورواياته قد ذاع أمرها، وانتشر بين سلمين خبرها وتداول الناس القراءة بها في العهد النبوي الكريم. (58)

كما أن الخليفة عثمان - رضي الله عنه - أرسل مع كل مصحف عالماً من علماء القراءة يعلم المسلمين القرآن وفق هذا المصحف، وعلى مقتضاه، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة؛ فكان كل واحد من هؤلاء يقرئ أهل مصره بما تعلمه من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر التي يحتملها رسم المصحف، دون الثابتة بطريق الآحاد والمنسوخة وإن كان يحتملها رسم المصحف، فالمقصود من إرسال القارئ مع المصحف تقييد ما يحتمله الرسم من القراءات بالمنقول منها تواتراً، فلو كانت القراءات مأخوذة من رسم المصحف، وساغ لكل إنسان أن يقرأ بكل قراءة يحتملها رسم المحصف سواء كانت ثابتة بطريق التواتر أم بطريق الآحاد، أم كانت منسوخة أم لم يكن لها سند أصلاً لم يكن ثم حاجة إلى إرسال عالم مع المصحف، فإيفاد عالم مع المصحف، دليل واضح على أن القراءة إنما تعتمد على التلقي والنقل والرواية لا على الخط والرسم والكتابة. (59)

كما أن الأدلة من القرآن والسنة تؤكد أن مصدر القراءات هو الوحي - وليس كما يزعم هذا المستشرق وأمثاله - من هذه الأدلة الكثيرة ما يأتي:

قال جل شأنه: «**وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يومٍ عظيم**». (60)

وقوله تعالى: «**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي علمه شديد القوى**». (61)

فهذه الآيات وما شابهها تدل على أن الرسول ﷺ، لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم شيئاً من عند نفسه، ومن باب أولى غيره من الصحابة والتابعين. (62)

والرسول ﷺ، تلقى القرآن مشافهة وسماعاً من جبريل عليه السلام، وكان عليه الصلاة والسلام، يعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليه وحيه - فأنزل الله تعالى - عليه: «**لا تحرك به لسانك لتعجل به**» (63) ووعده - سبحانه - بجمعه وقرآنه: «**إن علينا جمعه وقرآنه**» (64) وقد وجه الله تعالى رسوله ﷺ، باتباع قراءة جبريل والإستماع إليه: «**فإذا قرأنا فاتبع قرآنه**». (65) فكان ﷺ يستمع قراءة جبريل ثم يقرأ. (66)

قال الإمام القرطبي: «هكذا نشأت القراءات على أساس من التلقي والضبط والرواية، والنقل: محمد عن جبريل، عن رب العالمين». (67)

والأحاديث النبوية التي تشهد بأن مصدر القراءات هو الوحي الإلهي كثيرة ولا يتسع المقام لا يرادها وهي في الصحيحين وغيرهما؛ من هذه الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل استزيده (68) ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» (69) زاد مسلم: «قال ابن شهاب بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام». (70)

فهذا الحديث وغيره من الأحاديث الصحيحة، فإنها تدل دلالة صرحية علي أن الرسول ﷺ كان يتلقى القراءات من ربه - عزوجل - بواسطة الأمين جبريل -

عليه السلام - وأن الصحابة - رضي الله عنهم - تلقوا هذه القراءات عن النبي ﷺ، وتلقى هذه القراءات عن الصحابة التابعون.

فليس لأحد أن يقرأ القرآن باختياره، أو من تلقاء نفسه، من غير توفيق وتلق من رسول الله ﷺ فكيف يكون عدم النقط والشكل سبباً في اختلاف القراءات، كما يدعي هذا المستشرق؟ كما أن العقل السليم يدل على كذب هذه الفرية، التي يدعيها هذا المستشرق وهي أن منشأ القراءات يرجع إلى الرسم العثماني لا الوحي.

لأن القرآن الكريم لو لم يكن كله جاء عن طريق الوحي لكان بعضه من كلام البشر، ولو كان الأمر كذلك لذهبت أعظم خاصية من خصائص القرآن الكريم، وهي الإعجاز، ولو ذهبت عنه صفة الإعجاز لم يكن للتحدي به وجه، ولم يكن لعجز العرب عن معارضته سر، حيث أن بعضه من وضع البشر، لكن الثابت أن فصحاء العرب عجزوا عن معارضته، والإيتاء بمثله؛ بل بأقصر سورة من سوره، وهذا دليل على أن جميع القراءات منزلة من عند الله تعالى نزل بها الأمين جبريل - عليه السلام - على رسول الله ﷺ. (71)

والقرآن الكريم يؤكد أن مصدر القرآن هو الله تعالى، والتحدي بهذا الكتاب العزيز قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: «**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**». (72)

فالعقل السليم المتجرد عن الهوى يؤكد أن مصدر القراءات إنما هو الوحي، وليس للإجتهاد والرأي فيها مجال كما يزعم المستشرق "جولد تسيهر".

خامساً - خطورة القرآن:

القرآن الكريم كتاب محير للغربيين، ومقلق لأفكارهم، لما له من خطورة على عقائدهم الباطلة، ويمثل العقبة الأولى أمام تيارات الغزو الفكري، لكي

تجتاح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، يقول "بلاشير": «قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتاباً بلبل بقراءته دأبنا الفكري أكثر مما فعله القرآن». (73)

ومرجع هذا القلق عند الغربيين شعورهم بخطورة القرآن، وقد كان للإستشراق دوره في التحذير من خطورة القرآن على العالم الغربي، فقد تكفل بالكشف عن أخطاره القرآن طائفة من المستشرقين الذين أخضعوا بحوثهم العلمية للأهواء الشخصية أو الأهداف السياسية والدينية، فأعماهم ذلك عن الحق وأضلهم عن سواء السبيل.

ويعلم الغربيون الذين تخصصوا في دراسة القرآن الكريم أنه كتاب خطير، لأنه اشتمل على مبادئ تقيم الدنيا وتقعدها، وإذا تحقق فهمهما وتطبيقها ساد أهله العالم كله وتحكموا في مصيره؛ وهذا يعني أن المسلمين إذا عرفوا كتابهم حق المعرفة، وطبقوه تطبيقاً تاماً، فالويل كل الويل للإستعمار القديم والجديد؛ إذ أنه لن تقوم له قائمة بعد الساعة التي تتم فيها هذه المعرفة، ويتحقق فيها ذلك التطبيق؛ ومن ثم يتبين ذلك المجهود الذي يبذله المستعمرون في أن يبقى القرآن مجهولا، وأن تظل مبادئه مهجورة بعيدة عن التنفيذ. (74)

فالقرآن الكريم وقف سداً منيعاً أمام هجمات المبشرين والمستشرقين، ولذلك حاربوه، وحاولوا تشويهه بشتى الوسائل، يقول "وليم جيفورد بالكراف": «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه». (75)

قال مؤلف كتاب "العالم الإسلامي": وقد أدرك أهمية هذه الفكرة القسيس "يانغ" صاحب التقرير عن التبشير في جزيرة العرب فجعلها نصب عينيه في كل الأعمال، ولكننا نتساءل عما إذا كان قد حان الوقت للعمل بها وعما تكون نتيجة التبشير حينئذ (راجع المصدر السابق).

ومن هنا نعرف سبب هلع الغرب وفزعه الذي لا حد له عندما يشعر بوجود

تيار إسلامي في أي مكان في العالم الإسلامي، يدعو المسلمين إلى العودة إلى القرآن الكريم الذي يزرع العزة في قلوب أبنائه، ويرفض أن يكونوا أذلاء لأعدائهم، وهذا يعني أيضاً انطلاق المارد الإسلامي من سجنه ليثبت وجوده مرة أخرى، الأمر الذي يهدد أطماع ومصالح الغرب في الشرق الإسلامي.

وتتجه جهود الغزو الفكري إلى تحويل أنظار المسلمين إلى أن طريق الخلاص هو في اتباع سبيل الغرب العلماني، ولهذا تنطلق الدعوة من جانب بعض المستشرقين إلى إصلاح الإسلام، فالإسلام في زعمهم دين جامد لم يعد مسايراً لروح العصر؛ ومن أجل ذلك فهو في حاجة إلى إصلاح جذري، وفي ذلك يقول "ك. كراج K.cragg" رئيس تحرير مجل العالم الإسلامي: «إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة». (76)

والمراد من هذه الدعوة الخبيثة هو تفريغ الإسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه في ذلك شأن الديانة النصرانية.

ويحمل بعض أبناء المسلمين هذه الآراء لإصلاح الإسلام كما يفهمه المستشرقون، ويدعو بحماس إلى الأخذ بالنموذج الغربي في الإصلاح المتمثل في جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية، فذلك في نظرهم هو الحل الوحيد لأمة الإسلام. وبذلك يتم إبعاد الدين كلية عن التدخل في شؤون الحياة حسب الأنموذج العلماني الغربي. (77)

والغزو الفكري على القرآن الكريم يتنوع في أسلوبه ومن هذه الحملة التي قصد بها تشويه هذا الكتاب العزيز، ما زعمه المستشرق "جاك بيرك"، في حدث يفهم منه أن القرآن لم يأت بجديد وإنما هو امتداد للثقافة الغربية، ويستدل على الإرتباط بين الغرب والشرق والقرآن الكريم بأدلة من القرآن نفسه فيقول: «كان هناك يوناني إسمه (بارمينيد) عاش قبل سقراط مابين سنتي (515) و(440) قبل الميلاد، وقد كان رجلاً جاداً؛ وفي وقت انكبابي على

القرآن الكريم لم أجده يذكر نفس ما جاء به فحسب بل حتى نفس السور والدلالات، فهو يتحدث عن (هو) وتعلمون من (هو) الذي لا يولد ولا يلد... والصمد. نعم لقد جاء بالكلمة اللاتينية الوحيدة التي تقابل الصمد.. التي معناها ضد الأجوف، وذكر الأثير والأديم وقابل الشمس والقمر والسماوات والأرض.. ثم قرأ من مصحف قول الله تعالى: (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعام خلقها لكن فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) [78] ثم واصل القراءة في نفس السورة حتى بلغ قول الله تعالى: «**وعلمت وبالنجم هم يهتدون**» [79] ثم قرأ الآيات التالية من سورة الأنعام: «**وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون، وما تأتيهم من آية من ايات ربهم إلا كانوا عنها معرضين**» [80] ثم قرأ آيات أخرى، وفي كل مرة كان يقرأ ما يقابلها عند هذا الذي سماه (بارمينيد) ويتعجب من هذا التطابق وهذا الأصل في الغرب للشرق وهذه الوحدة الغربية.

من خلال هذا الحديث أراد (جاك بيرك) أن يؤكد شيئين أساسيين وهما:

الأول: إنه ليس هناك صراع حضاري بين الشرق المسلم والغرب المسحي؛ بل هناك وحدة حضارية، وإخاء بين الأديان يجب أن ندعمه مستقبلاً، وإن قدم لنا التاريخ وجود صراعات في الماضي فإنه يجب أيضاً ألا ينسينا وجود نقاط التقاء وتآخي كثيرة.

الثاني: إن الغرب هو مركز الحضارة بالأمس واليوم وغداً، وحتى القرآن المصدر الأول لحضارة المسلمين، موجودة معانيه في مؤلفات الغرب السابقة لنزول القرآن، بدليل ما كتبه (بارمينيد) كما هو واضح في حديث هذا المستشرق السابق. [81]

وهذا الكلام يبين لنا روح الهيمنة والإستعلاء التي مازال يعالمنا بها الغرب. فنحن قوم لا نصلح إلا لإستماع النصيحة والعمل بها.. وهم قوم أصحاب حكمة وعلم يسدون بها لبقية العالم الضعيف الأدنى مرتبة منهم.

وحديث هذا المستشرق عن الإخاء والمساواة ماهو إلا غلاف جديد للهيمنة الإستعمارية في نهاية هذا القرن، فمتى مارس الغرب الوحدة مع الشرق؟ ومتى دعا إلى وحدة الأديان؟ ولماذا؟!

وذكر بعض رموز الوحدة بين الشرق والغرب في العصر الحديث مثل (كامو- طه حسين - كازانساكيس - مخارة لامبيدوز... وغيرهم) ليؤكدوا لنا وحدة الشرق مع الغرب، وهؤلاء كلهم من نتاج الغرب المباشر أو غير المباشر.

يقول (أرنست رينان: 1823 - 1892م) صاحب نظرية الرسالة الحضارية للإستعمار: إن الحضارة الإسلامية لا أهمية لها، ولم يكن لها دور في التاريخ الإنساني، ثم يمضي قائلاً: بأن الحضارة تشكلها ثلاثة تواريخ: التاريخ اليوناني - وتاريخ "إسرائيل" والتاريخ الروماني.

- اليونان: قدموا النزعة الإنسانية والعقلية.

- بنو إسرائيل غطوا النقص الذي لدى اليونان فقدموا الدين.

- الرومان أتموا الحلقة بتقديم القوة التي انتشر بها الإنتاج العقلاني والدين أي الحضارة.

أما الحضارة الإسلامية فلم تقم إلا بدور الناقل والمخزن لمدة قرون لهذه الحضارة حتى يتسلمها منهم الغرب الحديث ليواصل المسيرة. هذا كل ما في الأمر، وهذا ما عندكم فهو يقول: «إنني أول من يعترف أننا لا يمكن أن نتعلم أي شيء، أو تقريباً أي شيء عن ابن رشد، أو عن العرب أو عن العصر الوسيط».[82]

وفي نفس فترة (رينان) يكتب (وليام موير): (حياة محمد) و(الخلافة) ويبين موقفه من الحضارة الإسلامية بجلاء فيقول: «إن سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة، اللذين عرفهما العالم حتى الآن عناداً». [83]

ركائز مواجهة الغزو الفكري:

القرآن الكريم مصدر الشرائع والفكر، ومحمد ﷺ، هو النموذج الحي والتطبيق العملي، ومن ورائه البطولات الإسلامية في مختلف المجالات.

ولقد كان من تمام حكمة الله أن جعل حجة الرسالة الخاتمة معجزة تخاطب القدر الثابت في الإنسان، على اختلاف الأجيال، فكان القرآن العظيم خطاباً للعقل والفكر، يعتمد على الدليل والبرهان، بل يوجب الفقه والنظر، ويحض على التيقن والإستدلال، ويطاول خصومه ويطالبهم بالحجة حتى في دعواهم الباطلة عن تعدد الالهة.. «**أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنت صادقين**». (84) «**قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات، أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين**». (85)

لذلك كان محور هذا الكتاب المعجز في غزو الجاهلية، واقتلاع جذورها الغائرة هو التأثير النفسي، والتغيير الفكري، والإقناع الذاتي، والإلزام العقلي بالحجة البينة، والدليل المستقيم، والكلمة الصادقة، التي لا يملك منصف معها إلا أن يقول ما علمنا الله إياه: «**قل فلله الحجة البالغة**». (86)

وقد قرر النبي ﷺ هذه الحقيقة، والتي تؤكد بدورها الأهمية البالغة للعمل الفكري فيقول ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». (87)

وقد اشتمل هذا الوحي العظيم على أوفى تفصيل لجوانب الغزو الفكري، بشقيه: الهجومي والدفاعي، تعليماً للمؤمنين حتى يواصلوا الدعوة إلى الله تعالى على هدي وبصيرة، ورداً على الكافرين، والمنافقين واضرابهم من أهل الكتاب، خاصة اليهود الذين احترفوا الجدل ومردوا على الشبهات...

وقد دمغ القرآن الكريم قادة هذا اللون من الحرب بأسماء وصفات غاية في

النكارة مثل: الشياطين؛ والسفهاء؛ والمعوقين؛ والمرجفين؛ وأكابر المجرمين؛ وأئمة الكفر؛ والذين في قلوبهم مرض إلى غير ذلك من الأسماء والصفات. (88)

ولكي تكون مواجهة الغزو الفكري ناجحة وفعالة يجب أن تستند إلى الركائز التالية:

1ـ جمع شبهات الغزو الفكري حول القرآن الكريم، وتصنيفها حسب موضوعات علوم القرآن، ليسهل الرجوع إلى المصادر التي استندت إليها هذه الشبهات.

2ـ دراسة هذهالشبهات من قبل العلماء المتخصصين، وبيان ضعف مصادرها وبيان الحق في القرآن بالأدلة النقلية والعقلية. «**ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم**». (89)

3ـ تربية الشباب الإسلامي على منهج القرآن، وإبراز معانيه وتجلية أحكامه وبيان وجوه إعجازه المختلفة، والتمكين لهذا القرآن ليسيطر على مجال التربية والتعليم، والفكر والثقافة، حتى يمكن بواسطته إعادة صياغة الفرد المسلم، والبيت الإسلامي والأمة المسلمة، وفق معايير القرآن الكريم.

4ـ غرس روح الإعتزاز المطلق في أجيال المسلمين بهذا القرآن الكريم، واستشعار عظمته وسموه وأنه كلام الله تعالى المنزل على رسول ﷺ، وأن الله حفظه من التبديل والتغيير إلى قيام الساعة؛ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن من تمسك به هدي إلى صراط مستقيم: «**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**». (90)

5ـ ضرورة إبراز مادة علمية دراسية جديدة بإسم "الغزو الفكري" أو ما شاكله من الأسماء، تشرح دور هذا الغزو، وتاريخه، وظروفه ومدى تأثيره في حياة المسلمين المعاصرة: فكرياً وقانونياً وتعليمياً... إلخ؛ وتقرر هذه المادة على مراحل التعليم المختلفة ـ كل بقدر ما يناسبه ـ ابتداء من السنة السادسة الإبتدائية، وانتهاء بآخر مراحل التعليم الجامعي. (91)

6ـ أن تقوم الجامعات والهيئات بتوجيه الرسائل العلمية إلى دراسة الغزو الفكري وأثره في حياة المسلمين عامة وأثره في القرآن الكريم خاصة، وبيان بطلان الشبهات التي وجهت إلى القرآن.

7ـ أن يرصد علماء المسلمين كل ما يلقي به الغرب في ساحة الإسلام من أفكار مضللة، وآراء منحرفة، وتخرصات على الإسلام، وتحريف لتعاليمه وأحكامه ـ ثم ليفندوا هذه المدعيات ويدحضوا هذه المفتريات، بسلطان الحق، ومنطق العقل، وشهادة الواقع، مما يعيش فيه الغرب وما يكابده من الآم بسبب تمزق وحدته النفسية التي جرته إليها تلك المذاهب الضالة التي أخرجته من عالم الإنسانية إلى عالم دون عالم الحيوان؛ وبهذا يرى المفتونون منا بالغرب شهادة الغرب على نفسه بما يعانيه من شقاء وضياع، وإن كان يرى في عين الأغبياء مثلاً للحياة الطيبة الهانئة...

8ـ إن المسلمين لا ينهضون بزوح أوربية، ولا بروح شيء خارج عن الإسلام، وما ينهض بهم إلا روح القرآن الذي كان مبعث نهضتهم الأولى، والذي به حياتهم الأدبية، والذي فيه لهم النازع والوازع والمحرك والمسكن، والذي بدونه ليس أمامهم إلا أمران: الفناء أو الإنحلال، على حد قول الأمير شكيب أرسلان «وإن العلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بأصول الإسلام، وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم».[92]

هذا بعض ما يجب أن نقوم به في مواجهة هذا الغزو الصليبي الصهيوني الذي يتهددنا ويتربص بنا الدوائر، حيث يشوه حقائق ديننا بالمفتريات والأباطيل، التي ينخدع بها بعض المفتونين من المسلمين بالغرب وحضارته، فإن قمنا بواجب الدفاع عن ديننا وصد هجمات الأعداء عنه كتب الله لنا النصر والعزة والغلبة: «**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز**».[93]

وإن استسلمنا لتيارات الغزو الفكري الجارف حق علينا المصير الذي ينتظر الحضارة الغربية المادية الملحدة، وسيهيء الله تعالى لدينه من ينصره «**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكون أمثالكم**».[94]

والله نسأل أن يحمينا مكايد أعدائنا، وأن يلهمنا العمل الجاد لرد كيدهم وأن يوفقنا في ذلك، حتى نستحق الظفر ومرتبة المجد، ضمن سنن الله تعالى في كونه مضافاً إلى ذلك فضله العظيم الذي يمنحه لأوليائه المجاهدين في سبيله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش والمصادر والمراجع

1- راجع مزيداً من التفصيل في: شبهات الغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، ص 4 وما بعدها، المكتب الإسلامي، ص 2، 1403هـ - 1983م.
2 - قارن بما جاء في: الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د/ محمود حمدي زقزوق، ص 70، كتاب الأمة، الطبعة الأولى، 1404هـ.
3 - راجع تفاصيل التشويه في كتاب: علي عبد الحليم محمود، الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية - الكويت - 1399هـ، ص 31 - 120.
4 - راجع التفاصيل في: عباس محمود العقاد، ما يقال عن الإسلام، موسوعة العقاد الإسلامية، المجلد الخامس، دار الكاتب العربي - بيروت، سنة 1391هـ.
5 - وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د/ حسان محمد حسان، ص 52 وما بعدها، طبعة أولى 1401هـ، كتاب دعوة الحق.
6 - راجع مزيداً من التفصيل في المصدر السابق، ص 63 وما بعدها.
7 - انظر: عماد الدين خليل، تهافت العلمانية، مؤسسة الرسالة سنة 1395هـ، وأبو هلال الأندونيسي، غارة تبشيرية على أندونيسيا، ص 13 - 18.
8 - سورة البقرة - الآية: 2.
9 - سورة الحجر - الآية: 9.
10 - سورة الأعلى - الآية: 18 - 19.
11 - راجع: محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص 25 وما بعدها، دار الوفاء، مصر، ط 1، عام 1992م.
12 - سورة البقرة - الآية: 12.
13 - سورة البقرة - الآية: 127.
14 - سورة الفرقان - الآية: 4.
15 - سورة الفرقان - الآية: 5.
16 - سورة النحل - الآية: 103.
17 - سورة المدثر - الآية: 24 - 25.
18 - سورة الحاقة - الآيات: 40 - 41 - 42 - 43.

19 - سورة الحاقة - الآيات: 44 - 45 - 46 - 47.

20 - راجع اللبان، ص 44.

21 - انظر: بحث الدكتور / محمود حمدي زقزوق، الإسلام في الفكر الثقافي، المنشور في العدد الثاني من حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ص 109.

22 - راجع مزيداً من التفصيل في: د/ محمد عبد الله دراز، المدخل إلى القرآن الكريم ص 130، دار القلم بالكويت، عام 1974م.

23 - راجع: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ص 76، الطبعة السادسة.

24 - راجع مزيداً من التفصيل في: د/ محمد محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم الطبعة الثانية.

25 - قارن بما جاء في: الدكتور غلاب، نظرات استشراقية في الإسلام، ص 41 - 42.

26 - راجع الدراسة القيمة، للدكتور محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن، ص 165.

27 - صحيح البخاري، ج 6، ص 185 ويقرب من هذا ما في تفسير الطبري ج 1، ص 10 ومسند أحمد 1/24 (وفي طبعة شاكر ج 1، ص 224 رقم الحديث 158).

28 - راجع البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ج 1، ص 212 القاهرة عام 1956م، ومناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ج1، ص 137، الطبعة الثالثة - القاهرة - بدون تاريخ.

29 - انظر: البرهان، ج 1، ص 220.

30 - راجع تفسير الطبري، ج 1، ص 10.

31 - نقلا عن مباحث في علوم القرآن د/ صبحي الصالح، ص 107، دار العلم للملايين، ط 13 عام 1981م.

32 - البرهان ج 1، ص 318 وانظر الإتقان 1/138.

33 - انظر: محاسن التأويل للقاسمي ج 1، ص 290.

34 - راجع: د/ محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن، ص 34.

35 - قارن بما جاء في الاستشراق والخلفية الفكرية، ص 91 وما بعدها.

36 - انظر: مقدمتان في علوم القرآن ص 104، مقدمة ابن عطية (546هـ) وأخرى لمؤلف مجهول تحقيق آثر جفري، السنة المحمدية سنة 1954م.

37 - راجع: كتاب "أدلة اليقين" ص 8، 9 للشيخ عبد الرحمن الجزيري رحمه الله تعالى.

38 - راجع: مزيداً من التفصيل في كتاب أستاذنا الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص 366.

39 - سورة الحجر - الآية: 9.

40 - سورة القيامة - الآية: 17.

41 - راجع البرهان في علوم القرآن، ج 2، ص 126 - 127.

42 - سورة فصلت - الآية: 41 - 42.

43 - انظر: مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر، ترجمة عبد الحليم النجار، ص 4، طبعة دار الكتب الحديثة.
44 - سورة النساء - الآية: 82.
45 - راجع كتاب: القراءات أحكامها ومصدرها، الدكتور/ شعبان محمد اسماعيل، ص 156 شوال 1402هـ سلسلة "دعوة الحق".
46 - سورة الفاتحة - الآية: 5.
47 - سورة الكهف - الآية: 16.
48 - انظر: اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، للدمياطي، ط. المشهد الحسيني، بالقاهرة.
49 - سورة الشعراء - الآية: 193.
50 - اتحاف فضلاء البشر، ص 334.
51 - القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي، ص 14 - 15، ط. القاهرة.
52 - سورة البقرة - الآية: 259.
53 - اتحاف فضلاء البشر، ص 162.
54 - القراءات في نظر المستشرقين والملحدين، ص 15.
55 - سورة النساء - الآية: 81.
56 - القراءات في نظر المستشرقين والملحدين، ص 18.
57 - مذاهب التفسير الإسلامي، ص 8 - 9.
58 - القراءات في نظر المستشرقين والملحدين ص 28.
59 - المصدر السابق، ص 48 - 49.
60 - سورة يونس - الآية: 15.
61 - سورة النجم - الآية: 3 - 5.
62 - قارن بما جاء في: زاد المسير في علم التفسير، الإمام ابن الجوزي، ج 4، ص 15 - 16، المكتب الإسلامي، طبعة رابعة، 1407هـ - 1987م، وانظر: القرطبي 318/5، والتسهيل 90/2، والبحر المحيط لأبي حيان 131/5، والرازي 57/17.
63 - سورة القيامة - الآية: 16.
64 - سورة القيامة - الآية: 17.
65 - سورة القيامة - الآية: 18.
66 - تفسير الجلالين، ص 494 طبعة شركة الشمرلي.
67 - الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص 20.
68 - قوله «فلم أزل استزيده»... إلخ معناه لم أزل أطلب من جبريل أن يطلب من الله عزوجل الزيادة عن الحرف تخفيفاً على الأمة ورحمة بها وتوسعة عليها، ويسأل جبريل ربه سبحانه فيزيده حتي انتي إلى سبعة أحرف.

69 - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن: أنزل القرآن على سبعة أحرف، مسند الإمام أحمد، ج5، ص 41، 51 - 114 - 122 - 124 طبعة الحلبي، سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، والنسائي (150/1).
70 - صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب: بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف.
71 - القراءات في نظر المستشرقين، ص 84.
72 - سورة البقرة - الآية: 23 - 24.
73 - بلاشير: القرآن، ص 41.
74 - محمد غلاب، نظرات استشراقية في الإسلام، ص 32 - 33.
75 - الغارة على العالم الإسلامي، أ.ل. شاتليه، ترجمة محي الدين الخطيب، ومساعد اليافي، ص 35، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت - لبنان.
76 -راجع:الدكتور البهي:الفكر الإسلامي الحديث،ص612 وأيضا ص608-556.
77 - راجع: الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص 98.
78 - سورة النحل - الآيات: 3 - 4 - 5.
79 - سورة النحل - الآية: 16.
80 - سورة الأنعام - الآية: 3 - 4.
81 - راجع: التغريب في الفكر والسياسة والإقتصاد، ص 16 وما بعدها محمد سليم قلالة، دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى 1408هـ - 1988م.
82 - ارنست رينان - المؤلفات - في محمد وقيدي - العلوم الإنسانية والآيديولوجية، ص 146 - 149، دار الطليعة، طبعة أولى سنة 1983م.
83 - ذكر من طرف البرت حوراني، الإسلام وفلاسفته في التاريخ، في «ادوارد سعيد، المرجع السابق، ص 168.
84 - سورة النمل - الآية: 64.
85 - سورة الأحقاف - الآية: 4.
86 - سورة الأنعام - الآية: 149.
87 - رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة.
88 - راجع - الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص 182.
89 - سورة الأنفال - الآية: 42.
90 - سورة الإسراء - الآية: 9.
91 - راجع مزيداً من التفصيل في: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص 275.
92 - انظر: شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، ص 404.
93 - سورة المجادلة - الآية: 21.
94 - سورة محمد - صلى الله عليه وسلم - الآية: 38.

الإنسان والزمان في القرآن الكريم

أ/ د. عبد الكريم بكري
مدير المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية - وهران

ينطلق مسار هذه الدراسة العاجلة من نظرة القرآن الشاملة لمكانة الإنسان في هذا الكون وبالمهمة الجليلة التي انيطت به، اذ هو الكائن الوحيد المسؤول المكلف في هذه الأرض لأن اللّه أودع فيه الصفات التي تقربه من الكمال إذا أراد ذلك.

إن مكان الإنسان - كما يقول العقاد بحق - هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة التي توزن بها طبائع الكائن بين الكائنات، إلى أن يقول في خلاصة مؤداها أنه (أي الإنسان) كائن أصوب في التعريف من قول القائلين: الكائن الناطق، لأن الكائن الناطق ليس بشيء إذا لم يكن أهلا لمكانة التكليف. والتكليف عند العارفين قائم على أركان أهمها: التبليغ، والعلم، والعمل.

ويقول السيد قطب في شرح قوله تعالى: «**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انتبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**».

يقول وهو يشرح هذه الآية:

وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق يده، وتكل إليه ابراز مشيئته في الخلق والإبداع، والتكوين، والتركيب، والتحوير والتبديل إلى أن يقول: وإذن فهي منزلة عظيمة منزلة الإنسان في هذا الوجود. وتتبدى القيمة الكبرى التي يعطيها